يوسف إدريس وعالم السينما

لا إجابة!

م.جمال باهرمز

هل دعواتنا مستجابة
يقتلوننا ونحن نصلي في مساجدهم
يقتلوننا ونحن في الجبهات ندافع عنهم
يقتلوننا ونسألهم لماذا؟
ولا نجد منهم إجابة
أعمال معابة
يقتلونا وبعد القتل يسرقوا ما لدينا
وبعد السرقة يتهموننا بأننا
نقاتل ليس لتحرير وطنهم
بل لاستعادة وطننا
من هذه العصابة
لا إجابة
فكلنا في فتاويهم مشروع إبادة
وكلنا في مللهم أعناقا للصرابة
حبا وقرابة
ارتضينا لهم العيش في قلوبنا
ولم يرضوا لنا بالعيش إلا في الخرابة
لا استجابة
لو كان للوفاء شرابا
لاسقيناهم شرابة
لوكان للعهد دواءا
لجرعناهم صوابه
لكن أحفاد ابارغال
بالغدر دوما مصابة.

"الأمناء" كتب / مازن توفيق:

الأديب المعاصر اليوم يكتب قصصه ورواياته وفي ذهنه وسائل التعبير الدرامية الأخرى من تلفزيون ومسرح ولكن أهمها السينما بما فيها من سحر وغموض وحلم، ولكن هل يمكن أن ترضي الأديب بتحويل عمله إلى الشاشة؟ إن البعض يرى أن هناك أعمالاً فقدت كل قيمتها عندما تحولت إلى أفلام سينمائية، كما هو الحال في أعمال همنغواي، ويكفي أن نعرف أن همنغواي نفسه قد خرج من السينما بعد مرور بضع دقائق على عرض فيلمه "والشمس تشرق ثانية"، يصرخ هذه ليست قصتي.

والحال نفسه أصاب الكثير من الأدباء، ولكن بعض الكتاب وفي مقدمتهم نجيب محفوظ حسم القضية بقوله "بأن القصة شيء والفيلم المأخوذ عنها شيء آخر، والكاتب تنتهي مهمته عند الفراغ من كتابة قصته ونشرها"، وهناك أدباء من الصعب تحويل أعمالهم لصعوبة إعدادها من أمثال جيمس جريس ووليم فوكنر، ولدينا من العالم العربي الأديب المصري الراحل يوسف إدريس الذي ليس من السهل تحويل أعماله إلى السينما، وقد رحل عنا يوسف إدريس عام ١٩٩١م، تاركا مجموعة أعماله السينمائية والمأخوذة عن رواياته وقصصه ذلك لأنه يكتب عن الإنسان كأزمة داخلية ومن خلال الحس السيكولوجي أو الفلسفي وهكذا يصبح من الصعب الوصول إلى رؤية ترضي الجمهور، والكاتب والمنتج والموزع.

ومجموعة الأعمال التي أنجزت وتحولت إلى سينما عن أعمال يوسف إدريس قليلة إذا ما قيست بأعماله المتنوعة وهي أيضا قليلة إذا قيست بكاتب مثل نجيب محفوظ أو إحسان عبدالقدوس، حيث تحولت معظم أعمالهما إلى السينما.

وهناك قصص ليوسف إدريس استغرقت من العد أعواما وتغير النص وتبدل وذلك بسبب صعوبة (القصة) فيوسف إدريس كاتب لا يخضع لمنطق السرد العادي والتقليدي بل هو يكتب من خلال (اللحظة) أو (الوميض) أو (الاستبطان) أو (التأمل) ولذلك نجد أعماله تبرق وتتوهج بالفكرة وترتبط بنبض المشكلة والأزمة الداخلية للإنسان والسينما دائما كانت تحتاج إلى مزيد من التفاصيل والشخصيات والسرد والثراء في الواقع الذي نعيشه، لذلك يوسف إدريس كاتب يبدو كاللهيب والبرق تحتاج قصصه إلى معد ومخرج كل منهما على جانب كبير من الحداثة والمعاصرة.

ففي السينما نجد أنفسنا أمام العديد من الأعمال القيمة المأخوذة عن قصص يوسف إدريس ولكن ربما كان أفضلها وأعمقها فيلم (الحرام) من بطولة سيدة الشاشة العربية فاتن حمامة وعبدالله غيث وإخراج هنري بركات، وعظمته تأتي من أنه فيلم محكم على قدر كبير من الثراء الفني، ولأنه معالجة ذكية لقضايا فئة من الفلاحين وفئة عمال (التراحيل) مع محاولة لتفهم مفهوم (الحرام) من كافة أبعاده في الريف المصري، ولقد كان السيناريست مع المخرج بركات شديدا الإعجاب لهذه القصة ولذلك أخذا منها وأضافا إليها مما جعل من الفيلم عملاً ممتازًا، دون أن يسيئا إلى القصة الأدبية نفسها ولقد كانا حريصين على ألا تلغى القصة الأدبية عن اللغة السينمائية.

وهناك فيلم آخر ليوسف إدريس هو فيلم (لا وقت للحب) الذي أخذ عن قصة له بعنوان (قصة حب) وأخرجها صلاح أبو سيف وتعالج الفترة التي أعقبت ضرب العمل الفدائي في قناة السويس في مطلع الخمسينات وكيف حاصرت الرجعية حرية الفدائي لكي تفتك به الجماهير التي أحبها ولا يقدم لنا هنا يوسف إدريس بطلا تقليديا إنما يقدم بطلا مطاردا يحاول الإفلات من القوى الباطشة التي تحاول الفتك به فيهرب من بيت إلى بيت حتى تضيق به الدنيا، فيحتمي بالمقابر ويسكن مع الموتى لعل عيون السلطة تنصرف عنه، نحن نحس أن يوسف إدريس في قصة فيلم (الحرام) وقصة فيلم (حادثة شرف) يعالج قضايا ومشاكل ترتبط بالريف المصري، ولكن يعالج هذه القضايا والمشاكل من زاوية جديدة، تماما على القصة والسينما معا، فهو يتناول الريف المصري من وجهة نظر رومانسية مثل الدكتور هيكل ومحمد كريم في فيلم (زينب) فقد كان يوسف إدريس كما أشرنا منذ البداية ثائرا على الرومانسية لحساب الواقعية التي ضاعت من بين يديه بعد ذلك هو يفتش داخل الوجدان الإنساني ولم يتوقف عند القضايا الاجتماعية في الريف المصري، لقد وجدنا يوسف إدريس يسير في رحلة خطرة هدفها اكتشاف الفلاح المصري من الداخل أنه يبحث في داخله محاولا أن يعي ويعرف القوة التي تسيطر عليه، ومبررات سلوكه الذي يندفع إليه..

وهناك خمسة أفلام مهمة أخرى ليوسف إدريس ترتبط بقصصه وفكره وهي (النداهة) و(العيب) و(عنبر الموت) و(قاع المدينة) و(حلاوة الروح)، وبرغم من أن قصة يوسف إدريس (النداهة) كانت قصة قصيرة إلا أنها كانت تحفل بالمعاني الميتافيزيقية والميثولوجية إلا أنها تحولت إلى فيلم متميز من بطولة ماجدة وشكري سرحان وإخراج حسين كمال، وقد ركز الفيلم على حياة الفلاحة التي عاشت على الفطرة ورافقت زوجها إلى المدينة وبهرتها المدينة المزيفة بصخبها وضجيجها بعماراتها ومواصلاتها وثياب نسائها وهي دفعت إلى السقوط من خلال مواجهتها لقوى أكبر منها فهي قادمة من الريف لتعيش مع زوجها الذي عين في إحدى العمارات السكنية كبواب للعمارة، وهي قد نودي إليها ربما كان القدر وراء ذلك وربما كان ذلك ظروف تغير الواقع وانحساره أمام زيف المدينة العصرية ولكنه على أية حال هذا النداء يتجسد في قوى غيبية تتجسد في (النداهة).

وأهل القرية يؤمنون كثيرا بتلك القوى الغيبية وبالنداهة التي تحيا قرب شطوط الماء عند النهر أو عند الترعة أو عند البئر وتنادي على البشر وتقودهم وتسيطر عليهم بقوى لا تقاوم من أجل الإقدام على عمل عما، قد يكون بالحب أو الانتحار أو بالسقوط أو بالهجرة أو بترك الأهل وعلى أية حال ترتبط هذه القوى بشكل أو بآخر بالمقدر والمكتوب على الجبين، وقد تجسد هذا النداء في الفيلم في تلك الأغنية التي كان يتردد صداها ويملأ المكان ويسيطر على بطلة الدراما صوت من بعيد ينادي.. وياليته ما ناداني.

هواكِ هواكِ

مصطفى الأبيض باعباد

ذكاؤكِ أنتِ دليلُ الهوى
هواكِ بعرشِ الفؤادِ استوى
وقد نلْتِ من أمهاتِ العلومِ
ستبقَينَ عاليةَ المستوى
حفظتِ كتابَ شديدِ القوى
سقيتِ فؤادكِ حتى ارتوى
ومهما ينافسْكِ من جاهلٍ
متى قلَّدَ البَدرَ نجمٌ هوىً
لقد سلَّمَ الأمرَ من كان في
كذا جملةٍ في الفؤادِ احتوى
أراد مجاراةَ ذاتِ العلوم
فسرعانَ ما في الفؤادِ انطوى
* * *
هواكِ هواكِ لقد مسَّني
بداءٍ وأنتِ الهوى والدوا..
هواكِ ربيعُ الفؤاد الذي
كواهُ القنوط لحتى اكتوى
أعدتِ إليه الرياض التي
مضتْ في صباهُ وَسنِّ الغِوى
* * *
يمثل شخصُكِ تلقاءَ عيني
إذا شاء قلبي بأنْ يسلوَا
ونحكي لبعض حكاياتِ حبٍّ
كــــأنَّا قريبان رُغْـــمَ النَّوَى
ويحملكِ الطيفُ نَحوي خيالاً
وما الحِلْمُ والحقُّ عندي سوا..
ولكنْ أسَلِّي فؤاداً حواكِ
ينوحُ ويشكو النوى والجوى.